

المبحث الثاني في تاريخ علوم القرآن وظهور اصطلاحه

عهد ما قبل التدوين

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه، ما عرف العلماء وفوق ما عرف العلماء من بعد. ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدوّنة، ولم تجمع في كتب مؤلفة، لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف.

أما الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فلأنه كان يتلقى الوحي عن الله وحده. والله تعالى كتب على نفسه الرحمة، ليجمعه له في صدره، وليطلقنّ لسانه بقراءته وترتيبه، وليميطننّ له اللثام عن معانيه وأسراره. اقرأ إن شئت قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ لِنَعْلَمَ بِيَاثِمِهِ﴾ (١٩) ﴿١﴾.

ثم بلغ الرسول ما أنزل عليه لأصحابه، وقراه على الناس على مكث أي على مهل وتؤدة، ليحسنوا أخذه، ويحفظوا لفظه، ويفهموا سره. ثم شرح الرسول لهم القرآن بقوله، ويعمله، ويتقريره، ويخلقه، أي بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤١) ﴿٢﴾. ولكن الصحابة وقتئذ كانوا عرباً خلصاً، متمتعين بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة من قوة في الحافظة، وذكاء في القريحة، وتدوّن للبيان؛ وتقدير للأساليب، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير، حتى أدركوا من

(١) سورة القيامة، الآيات: ١٦ - ١٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

علوم القرآن ومن إعجازه بليقتهم وصفاء فطرتهم، ما لا نستطيع نحن أن ندركه مع زحمة العلوم، وكثرة الفنون.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مع هذه الخصائص أميين، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم، والرسول نهاهم أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن وقال لهم أول العهد بنزول القرآن فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي. وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ. وَحَدِّثُوا عَنِّي فَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١). وذلك مخافة أن يلتبس القرآن بغيره، أو يختلط بالقرآن ما ليس منه؛ ما دام الوحي نازلاً بالقرآن. فلتلك الأسباب المتضاربة لم تكتب علوم القرآن، كما لم يكتب الحديث الشريف. ومضى الرعيل الأول على ذلك في عهد الشيخين أبي بكر وعمر. ولكن الصحابة كانوا مضرب الأمثال في نشر الإسلام وتعاليمه، والقرآن وعلومه، والسنة وتحريرها، تلقيناً لا تدويناً، ومشاهدة لا كتابة.

عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن

ثم جاءت خلافة عثمان رضي الله عنه، وقد اتسعت رُقعة الإسلام، واختلط العرب الفاتحون بالأمم التي لا تعرف العربية، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاط، بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف الصلحون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمام، فتكون فتنة في الأرض وفساد كبير. لهذا أمر رضي الله عنه أن يجمع القرآن في مصحف إمام، وأن تُنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام، وأن يحرق الناس كل ما عداها ولا يعتمدوا سواها. كما يأتيك تفصيله في مبحث جمع القرآن وكتابه.

وبهذا العمل وضع عثمان رضي الله عنه الأساس لما نسميه علم رسم القرآن أو علم الرسم العثماني.

ثم جاء علي رضي الله عنه فلاحظ العجمة تحيف على اللغة العربية؛ وسمع ما

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان: ١١٢.

أوجس منه خيفةً على لسان العرب فأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع بعض قواعد لحماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل، وخطَّ له الخطط وشرع له المنهج. وبذلك يمكننا أن نعتبر أن علياً رضي الله عنه قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو، ويتبعه علم إعراب القرآن (على الخلاف في هذه الرواية).

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة، وجاء عهد بني أمية، وهمة مشاهير الصحابة والتابعين متجهةً إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين، لا بالكتابة والتدوين. ولكن هذه الهمة في هذا النشر يصحُّ أن نعتبرها تمهيداً لتدوينها. وعلى رأس من ضرب بسهم وفيه في هذه الرواية: الأربعة الخلفاء، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم.

وعلى رأس التابعين في تلك الرواية: مجاهد، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم بالمدينة، وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن ومالك بن أنس من تابعي التابعين، رضي الله عنهم أجمعين. وهؤلاء جميعاً يعتبرون أنهم واضعو الأساس لما يسمى علم التفسير، وعلم أسباب النزول، وعلم النسخ والنسخ، وعلم غريب القرآن، ونحو ذلك. وستجد بسطاً لهذا الإجمال في بحث طبقات المفسرين.

عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافي

ثم جاء عصر التدوين، فألفت كتب في أنواع علوم القرآن، واتجهت الهمم قبل كل شيء إلى التفسير، باعتباره أم العلوم القرآنية لما فيه من التعرُّض لها، في كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز. ومن أوائل الكاتبين في التفسير: شعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح، وتفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين. وهم من علماء القرن الثاني. ثم تلاهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ وكتابه أجل التفاسير وأعظمها؛ لأنه أول من عرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، كما عرض للإعراب والاستنباط. وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا هذا حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها المعجب والمطرب، والموجز والمطول والمتوسط، ومنها التفسير بالمعقول والتفسير بالمأثور، ومنها تفسير القرآن كله، وتفسير جزء، وتفسير سورة، وتفسير آية، وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك.

أما علوم القرآن الأخرى، ففي مقدمة المؤلفين فيها: علي بن المديني شيخ البخاري إذ أُلّف في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام؛ إذ كتب في النسخ والمنسوخ؛ وكلاهما من علماء القرن الثالث. وفي مقدمة من أُلّف في غريب القرآن: أبو بكر السجستاني، وهو من علماء القرن الرابع. وفي طليعة من صنف في إعراب القرآن: علي بن سعيد الحوفي، وهو من علماء القرن الخامس. ومن أوائل من كتب في مبهمات القرآن: أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسبيلي، وهو من علماء القرن السادس. كذلك تصدّر للتأليف في مجاز القرآن: ابن عبد السلام، وفي القراءات: علم الدين السخاوي، وهما من علماء القرن السابع.

وهكذا قويت العزائم، وتبارت الهمم، ونشأت علوم جديدة للقرآن.

وظهرت مؤلفات في كل نوع منها، سواء في ذلك أقسام القرآن، وأمثال القرآن، وحجج القرآن، وبدائع القرآن، ورسم القرآن، وما أشبهها مما يروعك تصوّره بآلة الاطلاع عليه، ومما يملأ خزائن كاملة من أعظم المكتبات في العالم. ثم لا يزال المؤلفون إلى عصرنا هذا يزدون، وعلوم القرآن ومؤلفاته تنمي وتزدهر وتزيد، بينما الزمان يفنى والعالم يبيد! أليس إعجازاً آخر للقرآن؟ يريك إلى أي حد بلغ علماء الإسلام في خدمة التنزيل. ويريك أنه كتاب لا تفتنى عجائبه، ولا تنقضي معارفه، ولن يستطيع أن يحيط بأسراره إلا صاحبه ومُنزله!

وإذا أضفت إلى علوم القرآن ما جاء في الحديث النبوي الشريف وعلومه وكتبه وبحوثه باعتبارها من علوم القرآن، نظراً إلى أن الحديث شارح للقرآن يبيّن مبهمات، ويفصّل مجملاته، ويخصّص عامته، كما قال سبحانه لنبيه ﷺ ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(١) أقول: إذا أضفت الحديث النبوي وعلومه إلى علوم القرآن، تراءى لك بحرٌ متلاطم الأمواج. فإذا زدت عليها سائر العلوم الدينية والعربية باعتبارها خادمة للقرآن أو مستمدة منه، رأيت نفسك أمام مؤلفات كالجبال، وموسوعات تكاثر الرمال، ولا يسعك حينئذٍ إلا أن تردّد قول الله: ﴿ وَمَا يَعْصِمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(٢).

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

وتزداد عجباً إذا علمت أن طريقة أولئك المؤلفين في تأليفهم، كانت طريقة استيعاب واستقصاء، يعمد أصحابها أن يحيطوا بجزئيات القرآن من الناحية التي كتبوا فيها بقدر طاقتهم البشرية. فمن يكتب في غريب القرآن مثلاً يذكر كل مفرد من مفردات القرآن التي فيها غرابة وإبهام، ومن يكتب في مجاز القرآن يقتضي أثر كل لفظ فيه مجازاً أيّاً كان نوعه في القرآن، ومن يكتب في أمثال القرآن يتحدث عن كل مثل ضربه الله في القرآن، وهكذا سائر أنواع علوم القرآن، ولا ريب أن تلك المجهودات الجبارة لا يتهيأ لإنسان أن يحيط بها ولو أفنى عمره، واستنفد وسعه!

لهذا اشترأبت أعناق العلماء أن يعترضوا من تلك العلوم علماً جديداً يكون كالفهرس لها، والدليل عليها، والمتحدث عنها. فكان هذا العلم هو ما نسميه (علوم القرآن) بالمعنى المدون.

ولا نعلم أن أحداً قبل المائة الرابعة للهجرة ألف أو حاول أن يؤلف في علوم القرآن بالمعنى المدون، لأن الدواعي لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف. وإن كنا نعلم أنها كانت مجموعة في صدور المبرزين من العلماء، على الرغم من أنهم لم يدونوها في كتاب، ولم يفردها باسم.

أجل: كانت علوم القرآن مجموعة في صدور المبرزين من العلماء. فنحن نقرأ في تاريخ الشافعي رضي الله عنه أنه في محنته التي أتهم فيها بأنه رئيس حزب العلويين باليمن؛ وسبق بسبب هذه التهمة إلى الرشيد مكبلاً بالحديد في بغداد؛ سأله الرشيد حين لمح علمه وفضله، فقال: كيف علمك يا شافعي بكتاب الله عز وجل؟ فإنه أولى الأشياء أن يُبتدأ به. فقال الشافعي: عن أي كتاب من كتب الله تسألني يا أمير المؤمنين؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتباً كثيرة. قال الرشيد: قد أحسنت، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمي محمد ﷺ. فقال الشافعي: إن علوم القرآن كثيرة؛ فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه، أو عن تقديمه وتأخيرها، أو عن ناسخه ومنسوخه، أو عن... أو عن...؟؟

فأنت ترى من جواب الشافعي هذا، ومن فلجه^(١) بالصواب في هذا الموقف

(١) فَلَجَّ بحجته: أحسن الإدلاء بها فغلب خصمه.

الرهيب ما يدل ذلك على أن قلوب أكابر العلماء كانت أناجيل لعلوم القرآن من قبل أن تُجمع في كتاب، أو تدوّن في علم. وقد نوّه جلال الدين البلقيني في خطبة كتابه بكلمة الشافعي التي ذكرناها إذ قال: «قد اشتهر عن الإمام الشافعي رضي الله عنه مخاطبةً لبعض خلفاء بني العباس، فيها ذكر بعض أنواع علوم القرآن يحصل منها لمقصدنا الاقتباس».

ونحن لا نستبعد على الشافعي هذا، فقد كان آية من آيات الله في علمه وذكائه، وفي ابتكاره وتجديده، وفي قوة حجته وتوفيقه. حتى إنه وضع كتابه (الحجة) في العراق يستدرك به على مذاهب بعض أهل الرأي، وألف في مصر كتاباً يستدرك بها على مذاهب بعض أهل الحديث. ثم وضع دستوراً للاجتهد والاستنباط لم يتسنّ لأحد قبله، إذ كان أول من صنف في أصول الفقه وهو من علوم القرآن كما علمت. قال ابن خلدون في مقدمته «كان أول من كتب فيه - أي علم أصول الفقه - الشافعي رضي الله عنه، أملى فيه رسالته المشهورة، تكلم فيها على الأوامر والنواهي، والبيان، والخبر، والنسخ، وحكم العلة المنصوصة من القياس» اهـ.

وقال الزركشي في كتابه البحر المحيط في أصول الفقه «الشافعي أول من صنف في أصول الفقه. صنف فيه كتابه الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس الذي ذكر فيه تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول رسالتهم» اهـ رضي الله عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين.

أول عهد لظهور هذا الاصطلاح

ولقد كان المعروف لدى الكاتبين في تاريخ هذا الفن، أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح أي اصلاح علوم القرآن، هو القرن السابع.

لكني ظفرت في دار الكتب المصرية بكتاب لعلّي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ «اسمه: البرهان في علوم القرآن». وهو يقع في ثلاثين مجلداً، والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً، غير مرتبة ولا متعاقبة، من نسخة مخطوطة. وإذن نستطيع أن نتقدّم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أي إلى بداية القرن الخامس بدلاً من القرن السابع. ولقد كنت مشغولاً أن أقرأ مقدمة كتابه هذا، لأخذ اعترافاً صريحاً منه بمحاولته إنشاء هذا العلم الوليد. ولكن ماذا أصنع، والجزء

الأول مفقود؟ غير أن اسم الكتاب يدلني على هذه المحاولة . وكذلك استعرضت بعض الأجزاء الموجودة فرأيت أنه يعرض الآية الكريمة بترتيب المصحف ثم يتكلم عليها من علوم القرآن، خاصاً كل نوع منها بعنوان، فيسوق النظم الكريم تحت عنوان: (القول في قوله عز وجل). وبعد أن يفرغ منه يضع هذا العنوان: (القول في الإعراب) ويتحدث عنها من الناحية النحوية واللغوية: ثم يتبع ذلك بهذا العنوان (القول في المعنى والتفسير) ويشرح الآية بالمأثور والمعقول. ثم ينتقل من الشرح إلى العنوان الآتي: (القول في الوقف والتمام) مبيناً تحته ما يجوز من الوقف وما لا يجوز. وقد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول: (القول في القراءة). وقد يتكلم في الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الآية عند عرضها، ففي آية ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مَحْدُودٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) من سورة البقرة يذكر أوقات الصلاة وأدلتها، وأنسبة الزكاة ومقاديرها. ويتكلم على أسباب النزول، وعلى النسخ، وما إلى ذلك عند المناسبة. فأنت ترى أن هذا الكتاب أتى على علوم القرآن، ولكن لا على طريقة ضم النظائر والأشياء بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد، بل على طريقة النشر والتوزيع تبعاً لانتشار الألفاظ المتشاكلية في القرآن وتوزعها. حتى كأن هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات. وأياً ما يكن هذا الكتاب فإنه مجهود عظيم، ومحاولة جديرة بالتقدير في هذا الباب. جزى الله مؤلفه خير الجزاء.

ثم جاء القرن السادس فألف فيه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابين: أحدهما اسمه «فنون الأفتان في علوم القرآن» والثاني اسمه «المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن» وكلاهما مخطوط بدار الكتب المصرية.

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤١ هـ كتاباً سماه «جمال القراء» وألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاباً أسماه «المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز» وهما - كما قال السيوطي - عبارة عن طائفة يسيرة، ونبذ قصيرة، بالنسبة للمؤلفات التي ألفت بعد ذلك في هذا النوع.

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

ثم أهل القرن الثامن فكتب فيه بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ كتاباً سماه «البرهان في علوم القرآن» وتوجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية، في دار الكتب المصرية، تقع في مجلدين ناقصين. ثم طلع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة، فدرج فيه وترعرع، إذ ألف محمد بن سليمان الكافيحي المتوفى سنة ٨٧٣ هـ كتاباً يقول السيوطي عنه: «إنه لم يُسبق إليه، وقد اشتمل على باين: الأول في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية. أما الثاني ففي شروط القول في القرآن بانراي. وبعدهما خاتمة في آداب العالم والمتعلم» غير أنه قال أخيراً: «ولكن ذلك لم يشف لي غليلاً، ولم يهديني إلى المقصود سيلاً» اهـ. وفي هذا القرن أيضاً وضع جلال الدين البلقيني كتاباً سماه «مواقع العلوم من مواقع النجوم». وقد رتبته على ستة مباحث: الأول في مواطن النزول وأوقاته ووقائعه، وفيه اثنا عشر نوعاً^(١). الثاني في سند القرآن وهو ستة أنواع^(٢). الثالث في أدائه وهو ستة أنواع أيضاً^(٣). الرابع في ألفاظه وهو سبعة أنواع^(٤). الخامس في معانيه المتعلقة بأحكامه، وهو أربعة عشرة نوعاً^(٥). السادس في معانيه المتعلقة بألفاظه وهو خمسة أنواع^(٦). وبذلك يكمل الكتاب كله خمسين نوعاً غير ما فيه من أنواع الأسماء والكنى والألقاب والمبهمات. وهي لا تدخل تحت حصر.

وفي هذا القرن التاسع أيضاً ألف السيوطي كتاباً سماه «التحجير في علوم التفسير» ضمنه ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها، وأضاف إليه فوائد سمحت قريحته

- (١) المكي، المدني، السفري الحضري، الليلي، النهاري، الصيفي، الشتائي، الفراشي، أسباب النزول، أول ما نزل، آخر ما نزل. (م).
- (٢) المتواتر، الآحاد، الشاذ، قراءات النبي ﷺ، الرواة، الحفاظ (م).
- (٣) الوقف، الابتداء، الإمالة، المد، تخفيف الهمزة، الإدغام. (م).
- (٤) الغريب، المعرب، المجاز، المشترك، المترادف، الاستعارة، التشبيه. (م).
- (٥) العام الباقي على عمومه، العام المخصوص، العام الذي أريد به الخصوص. ما خص فيه الكتاب السنة، ما خصت فيه السنة الكتاب، المجلد، الميّن، المؤلف، المفهوم، المطلق، المقيد، الناسخ، المنسوخ، نوع من الناسخ والمنسوخ وهو ما عمل به مدة معينة والعامل به واحد من المكلفين. (م).
- (٦) الفصل، الوصل، الإيجاز الإطناب، القصر.

بنقلها. وقد أوفى هذا الكتاب على الاثني عشر بعد المائة من الأنواع. وفرغ الإمام من تأليف تحبيره هذا سنة ٨٧٢ هـ غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم بل طمح إلى التبخر والتوسع والترتيب، فوضع كتابه الثاني «كتاب الإتقان في علوم القرآن»، وهو عمدة الباحثين والكتابين في هذا الفن. ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج، ثم قال بعد أن سردها نوعاً نوعاً: «ولو نُوعَتْ باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة» اهـ.

وتوفي السيوطي رحمه الله سنة ٩١١ هـ في مفتتح القرن العاشر، وكان نهايته كانت نهاية لنهضة التأليف في علوم القرآن، عليه سحائب الرحمة والرضوان، فلم نر من سار في هذا المضمار مثله بعده، كما لم نر من بزّه فيه قبله.

علوم القرآن في القرن الأخير

بيد أنه ظهرت في أيامنا بوادر استئناف لحركة النشاط والتأليف في هذا العلم. إذ ألف العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري كتاباً جليلاً سماه «التبيان في علوم القرآن» يقع في قريب من ثلاثمائة صفحة. وفرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ.

وألف العلامة المرحوم الشيخ محمود أبو دقيقة مذكرة قيّمة لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين. وقفاه العلامة الشيخ محمد علي سلامة فوضع كتاباً حافلاً لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد كذلك سماه «منهج الفرقان في علوم القرآن».

وتوجد مؤلفات في بعض مباحث علوم القرآن لكثير من أفاضل العلماء والأدباء، نذكر من بينهم الأعلام المرحومين: الشيخ محمد بخيت، والشيخ محمد حسين العدوي والشيخ محمد خلف الحسيني، إذ كتبوا في نزول القرآن على سبعة أحرف، وفي بعض مباحث أخرى. والمرحوم السيد مصطفى صادق الرافعي إذ ألف في إعجاز القرآن كتاباً جليلاً طبعه المغفور له الملك فؤاد الأول على نفقته. ومنهم المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش إذ كتب محاضرات موضوعها: أثر القرآن في تحرير العقل البشري وألقاها في نادي دار العلوم. والمرحوم الشيخ عبد العزيز الخولي إذ وضع كتابه «القرآن الكريم: وصفه، أثره، هدايته وإعجازه». والمرحوم الشيخ طنطاوي جوهرى إذ وضع رسالة سماها: القرآن والعلوم العصرية.

ثم انبرى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر للقول بجواز ترجمة القرآن، وكتب في ذلك رسالة عظيمة الشأن وأيده آخرون، وتصدى العلامة الكبير الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام بتركيا سابقاً للرد على ذلك في كتاب دقيق سماه «مسألة ترجمة القرآن» وظهره آخرون.

وقد اطلعت أخيراً على صدر كتاب اسمه: «النبأ العظيم عن القرآن الكريم، والطريقة المثلى في دراسته» فراعني دقة بحثه وتفكيره، وراقني رقة أسلوبه وتعبيره ووددت لو تم هذا الكتاب، وهو لصديقي العلامة الشيخ محمد عبد الله دارز مبعوث الأزهر إلى فرنسا الآن (ردّه الله سالماً غانماً وأمتع به الإسلام والمسلمين آمين).

خلاصة

ويمكنك أن تستخلص مما سبق أن علوم القرآن كفن مدون استهلت صارخة على يد الحوفي في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس، ثم تربت في حجر ابن الجوزي والسخاوي وأبي شامة في القرنين السادس والسابع، ثم ترعرعت في القرن الثامن برعاية الزركشي. ثم بلغت أشدها واستوت في القرن التاسع بعناية الكافيحي وجلال الدين البلقيني. ثم اهترت وربت وأنبت من كل زوج بهيج في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر، بهمة فارس ذلك الميدان صاحب كتابي التحبير، والاتقان في علوم القرآن: للسيوطي عليه ألف رحمة من الله ورضوان. ثم وقف نموها بعد ذلك حتى هذا القرن الأخير. ثم بدأت تتعثر في هذه السنين من جديد، وعسى أن تعود سيرتها الأولى ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(١).

كلمة لا بد منها

وقبل أن نتهي من هذا البحث نلفت نظرك إلى أن هذا العلم يسير على سنة غيره من العلوم بين جزر ومد؛ وزيادة ونقص. على مقدار ما يستهدف له من مؤثرات خاصة. فلا بدع أن تجد في منهج دراستك اليوم مباحث جديدة، ومواضع مبتكرة، لم تتظم قبل في سمط علوم القرآن؛ ذلك لأن الأفكار متحركة ومتجددة، ولأن الشبهات التي تحوم في رؤوس بعض الناس في هذا العصر، والمطاعن التي يوجهها أعداء

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

الإسلام في هذا الجيل، قد تكون هي الأخرى جديدة ومبتكرة، ومن الحكمة أن نقاتل الناس بمثل سلاحهم، وأن ندرس في علوم القرآن ما يحمي حَمَى القرآن الشريف، من هذا العدوان الخبيث. أضف إلى ذلك أن العلوم تَخْبُو بالإهمال والترك، وتَزُكُو بالدرس والبحث. سُنَّةَ الله في خَلْقِهِ ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلشُّرْكَاءِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا تَبْدِيلًا﴾^(١).

(١) الأحزاب: ٦٢، فاطر: ٤٣. الفتح: ٢٣.